من تاريخ الحروب الايرانية – الروسية (دراسة موجزة لدوافعها ووقائعها ونتائجها)

أ.د. كمال مظهر
كلية الآداب - جامعة بغداد

شهد التاريخ الحديث لروسيا القيصرية، وأواخر التاريخ الوسيط لايران في عهود الصفوين والافغان والافشار والزند والقاجار سلسلة مشاحنات وصراعات وصدامات وحروب تؤلف حلقة مهمة من حلقات تاريخ البلدين، كما اقتربت آثارها الى مناطق القفقاس وما وراء القفقاس، وقزوين وما وراء قزوين، بل وحتى الى اواسط اسيا ومناطق حساسة من الشرق الاوسط.

تعود بدايات الاحتكاك بين الروس والايرانيين الى القرن الخامس عشر، فقد تحدث الرحالة الروس مرارا عن مدينة تبريز بوصفها مركزا مهما للقوافل التجارية في ذلك الحين[1]

وبعد مرور حوالي نيف ونصف قرن دخلت اعتبارات جديدة ومهمة لدفع الروس باتجاه الجنوب، ولاسيما بعد ان تمكنوا في العام 1556م من الاستياء على استراخان، لينتقل بذلك كل الفولغا اطول انهار اوربا، من منابعها حتى مصبها في بحر قزوين الى ايدي الروس، مما ادى الى ازدياد اهميتها التجارية، إذ بدأت مئات السفن المحملة بالبضائع تقطعها شمالا وجنوبا. وتبعا لذلك ازدادت اهمية المناطق المجاورة لوادي الفولغا واستراجان، وفي مقدمتها السواحل الشمالية لبحر قزوين (الخزر) الذي طالما خضع للحكام الايرانيين في حقب تاريخية مختلفة. ويمكن تأشير الوصول الى استراخان بمثابة بداية طريق روسيا الى ايران والمناطق الغنية التي كانت بحوزتها.

ففي سنة 1664م مثلا، وصلت اصفهان، عاصمة الدولة الصفوية، بعثة روسية تتألف من سفيرين، وما لايقل عن (800) تابع، حملت رسالة من القيصر الروسي الى الشاه عباس الثاني[2].

ومن المفيد ان نشير الى ان التوجه الروسي المبكر نحو ايران انطوى، منذ البداية، على عناصر العدوان العسكري. فلم تمضي سوى اربع سنوات على بعثة القيصر الروسي الضخمة الى الشاه الصفوي حتى قامت قوة روسية من القوزاق[3] بالهجوم على المدينة الشمالية الايرانية المهمة مازندران[4]، مسقط رأس رضا شاه بهلوي بعد نيف ومئتي سنة.

ازداد اهتمام الروس بايران، بوجهيه السلمي والعسكري، في عهد قيصرهم الطموح بطرس الكبير(1682- 1725) الذي تحول كلامه (ان روسيا بحاجة الى البحر) الى شعار ستراتيجي (سوقي) ثابت لحكام روسيا القيصرية دون استثناء، والى دافع اساس لتوجيهات هولاء الحكام صوب الغرب والجنوب، بما في ذلك ايران. وفي هذا السياق ازداد اهتمام روسيا بايران بصورة ملموسة في عهد بطرس الكبير نفسه الذي تعلم الكثير من الانكليز والفرنسيين والالمان حين زار بلدانهم بصورة متنكرة، فاراد ان يحذو حذوهم، ولاسيما الانكليز منهم، فعلى غرارهم خطط لاقامة تجارة مباشرة بين بلاده والهند، ولم يكن امامه سوى طريقين فإما خيوه وبخارى، او عن طريق بحر قزوين مرورا بايران[5].

وفي عهد بطرس الكبير انصب اهتمام بطرسبورغ بايران في ظواهر واحداث متباينة، قسم منها كان سلميا، والقسم الاخر كان عسكريا. فمنذ العام 1697 بعث باكثر من بعثة ديبلوماسية الى البلاط الصفوي، مزودة بتعليمات محددة لتطوير العلاقات التجارية مع ايران. لم تذهب هذه الجهود سدى، فقد حققت روسيا مكاسب تجارية مهمة بفضلها، اذ لم ينته القرن السابع عشر الا واصبح لدى الروس عدد من السفن في مياه قزوين، وفي العام 1717 تم ابرام معاهدة تجارية بين اصفهان وبطرسبرغ، وبعد عامين من ذلك التاريخ وصل اول قنصل روسي الى مدينة رشت الايرانية الشمالية[6] .

لكن روسيا في عهد بطرس الكبير كانت تطمح في اكثر مما حققت، الامر الذي ادى الى وقوع اول صدام عسكري مباشر لها مع ايران ففي

العام 1700م طلب الروس من الايرانيين ان يمنحوهم حق الدخول في ميناء باكو، المطل على قزوين، بحرية، وكان ذلك تحديدا بعد ان جلب نفط باكو[7] انظار بطرس الكبير الذي طلب خصيصا بأن يبعث له بانموذج منه[8].

رفض الشاه طلب الروس، وامر باقامة التحصينات الضرورية في الميناء، لكن ذلك لم يؤد الى حدوث صدام مباشر بين الدولتين، ذلك لان القيصر الروسي كان منشغلا بحربه المصيرية مع جارة باده الغربية السويد من اجل الوصول الى مياه البلطيق، تلك الحرب الطويلة الامد التي لم تنته بانتصار الروس الا في العام 1721م، ليفرغ بطرس بعد ذلك للشؤون الايرانية بصورة افضل، ومما شجعه على ذلك ان الدولة الصفوية نفسها بدأت تعيش ايامها الاخيرة منذ ان بدأ الافغان بغزو الاراضي الايرانية اعتبارا من العام 1720م[9]

مهد كل ذلك الطريق الى ما عرف بالحملة، او المسيرة الفارسية الاولى، التي تعرف ايضا بحملة بطرس على ايران. بدأت الحملة بقيادة بطرس الكبير نفسه في اول صيف عام 1722م، وكان قوامها حوالي (44)الف رجل، نصغهم من المشاه اقلتهم (274) سفينة عبر نهر الفولغا الى استراجان في الثامن عشر من تموز ذلك العام، والنصف الاخر منهم كان يتألف من الخيالة. وبعد ان اجتمعت القوتان في استراجان توجهت الحملة صوب داغستان، ومن ثم دخلت اراضي اذربيجان الشمالية، واحتلت مدينة دربند من دون قتال. ورغم ان القيصر عاد الى عاصمة ملكه، الا ان قواته واصلت تقدمها، فأحتلت مدينة رشت في كانون الاول من العام نفسه، لتغدو منطقة واسعة من مقاطعة كيلان (جيلان) الشمالية الايرانية الغنية تحت سيطرة روسيا اثر ذلك[10].

وبعد حوالي سبعة اشهر من تاريخ احتلال رشت حققت القوات الروسية مكسبا اهم من ذلك عندما تمكنت من احتلال ميناء باكو المهم. ففي تموز سنة 1723م دخلت سفن الاسطول الروسي مياه الميناء، وبعد قصف مدفعي دام اربعة ايام دخل الغزاة المدينة نفسها في السادس والعشرن من تموز، مما ادخل بهجة كبيرة ف نفس بطرس الكبير لانه كان يرى في ميناء باكو وما والاه " مفتاحا لكل اهدافه" على حد تعبيره هو[11]

في ظروف الغزو الافغاني، والتهديد العثماني اضطر الشاه طهماسب الصفوي الى ارسال مندوب عنه الى بطرسبورغ حيث وقع مع بطرس الكبير"معاهدة تحالف" في الثالث والعشرين من ايلول سنة 1723م، تضمنت بنودها الاربعة تنازلات كبيرة من ايران، بما في ذلك اعتراف الشاه بعائدية مدينتي دربند وباكو، وما يتبعهما من مناطق لروسيا "الى الابد"، فضلا عن الاقرار بسيادتها على مدن ومقاطعات مهمة اخرى مثل كيلان ومازندران واستراباد، مقابل تعهد القيصر الروسي بتقديم مساعدات عسكرية للشاه الصفوي ضد الغزو الافغاني، والتهديد العثماني، على ان يتحمل الثاني منهما تزويد قوات الاول التي تدخل الاراضي الايرانية بالمؤن والجمال[12].

تعد "معاهدة بطرسبورغ" اخطر تراجع من نوعه قدمه الايرانيون الى الروس الى ذلك الحين، وهي دشنت، بغض النظر عن جميع ملابسات عقودها، ونتائجها على ارض الواقع، بداية نوعية خطيرة في سياق العلاقات بين البلدين التي اتسمت في الغالب بالتنازل من الجانب الايراني الى الجانب الروسي، الا في حالات نادرة تشهد فيها ايران نهوضا وقتيا في خضم تراجع عام، كما حدث في عهد نادر شاه الافشاري الذي تمكن من طرد الافغان، ليتبوأ بعد ذلك عرش ايران في العام 1736م [13]، ففي عهده وقعت روسيا اكثر من معاهدة مع ايران، اعادت اليها بموجب موادها معظم المناطق التي حصلت عليها بموجب "معاهدة بطرسبورغ" السابقة، بما في ذلك كيلان ومازندران واستراباد، بحيث لم يبق لدى روسيا في ايران في اواسط القرن الثامن عشر سوى مقيمية ميناء انزلي على بحر قزوين، ووكيل تجاري في دربند[14].

لم يعن التنازل الروسي الاخير ان بطرسبورغ قد تخلت عن اطماعها، وخططها المتشابكة لايران، كما لم يكن ذلك دليلا على قوة الاخيرة بقدر ما كان يعكس حاجات روسية محددة. فلقد شهدت تلك الحقبة توترا شديدا في العلاقات بين الروس والعثمانيين، افضي في العام 1735م، اي في السنة التي تم فيها التوقيع على المعاهدة الثانية بين نادر الافشاري والقيصر الروسي، الى حرب طاحنة بين الطرفين دامت على مدى اربع سنوات طوال. ففي ذلك الظرف كان الروس بحاجة الى كسب ود الايرانيين في

سياق تحريضهم ضد العثمانيين الذين كانوا اصلا على اسوأ علاقة مع نادر شاه. وينبغي ان نضيف الى ذلك عنصرا مهما آخر يتعلق بموت القيصر الطموح بطرس الكبير في العام 1725م . مع ذلك لم تحقق روسيا مكاسب تجارية ودبلوماسية قليلة في ايران بفضل المعاهدات التي عقدتها معها في عهد نادر شاه الذي سرعان ما تخلخل نظامه على اثر مقتله في العام 1747[15].

وقع انعطاف خطير في العلاقات بين روسيا وايران مع انتقال العرش في الاخيرة الى القاجاريين قبل حلول نهاية القرن الثامن عشر. ولقد انطوت المرحلة الجديدة على عاملين جوهريين متفاعلين، ذي افرازات عميقة بالنسبة لموضوعنا، الاول منها تطور العلاقات الرأسمالية في روسيا، وتشعب سياستها ومصالحها الدولية تبعا لذلك. اما العامل الثاني منهما فأنه يجسد صورة مغايرة تماما لتلك الصورة، ونقصد بها انحلال ايران السريع، وتخلفها عن الركب في ظل القاجاريين الذين عجزوا عن هدم السور الاقطاعي الذي كان يلف بلادهم. ولقد تجسد هذا الواقع بوضوح في سياسة مؤسس الدولة القاجارية آغا محمد خان الذي كان يحلم ببعث سطوة الصفويين، وإحياء امبراطورية نادر شاه المترامية الاطراف من دون ان يأخ حساب الزمن، وواقع تناسب القوى على الصعيد الدولي بنظر الاعتبار، فلقد كان الرجل نفسه الانموذج الاسوأ للاقطاعي في مرحلة انحلال النظام الاقطاعي، وزواله السريع، اذ تصفه المصادر الفارسية، قبل غيرها، كأنسان قاسي القلب، لئيم الطبع، ماكر السريرة[16].

هكذا قاد مؤسس العهد القاجاري الجديد سلسلة من المغامرات الخارجية بعد ان استتبت له الامور داخليا، اصطدم في خضمها بالروس ليدفع، في نهاية المطاف، رأسه ثمنا لذلك. فأن آغا محمد كان يتوق الى اعادة سيطرة بلاده على جورجيا وغيرها من مناطق ما وراء القفقاس الغنية التي كانت تتبع ايران في عهود سابقة. ولتحقيق ذلك هيأ حملة عسكرية بكتمان شديد، اذ جمع في ضواحي طهران، التي اتخذها، بدل شيراز عاصمة ملكه، جيشا جرارا لزمانه، قوامه (60) الف مسلح دون ان يعلم احدا بوجهته تحديدا. وفي ربيع عام 1795م تحرك على رأس قواته صوب القفقاس، فاحتل قرة باغ وآذربيجان الشمالية، ثم دخل اراضي جورجيا

واحتل عاصمتها تبليس في الثاني عشر من ايلول. وعلى الرغم من ان تبليس استسلمت دون قتال، الا ان الزعيم القاجاري اطلق العنان لرجاله ليفعلوا ما يشاءوا بأهلها، فارتكبوا جرائم فظيعة اسهبت في وصفها المصادر الفارسية والغربية على حد سواء[17]، والتي ذهبت ضحيتها الاف مؤلفة من الابرياء، مع قدر غير قليل من الآثار الحضارية الجورجية. ولم تكن ضحايا الجورجيين في المناطق الاخرى اقل من ذلك، بحيث ان بعض الوثائق الديبلوماسية التي تعود الى لك الحقبة تؤكد ان عدد سكان جورجيا قد تقلص الى النصف تقريبا قياسا مع ما كان عليه في العام 1783م (من 61ألف اسرة الى 35ألف فقط)[18].

كعادة الطغاة من امثاله حاول الزعيم القاجاري تغطية اعماله المشينة في جورجيا بغطاء الاسلام، مع العلم انه لم يتردد اثناء الحملة نفسها، في استخدام قدر كبير من القسوة ايضا مع المسلمين من سكان طالش الجبليين، وسكان بعض المناطق في قرة باغ لمجرد انهم لم يعلنوا عن ولائهم له مباشرة[19].

بعد ان امضى آغا محمد خان تسعة ايام في العاصمة الجورجية تبليس قفل راجعا الى ايران مستصحبا معه (15) الف شاب وشابة حول معظمهم الى خدم في بيوت الامراء والاغنياء[20].

كان رد فعل روسيا على حملة الزعيم القاجاري قويا، فاصدرت بطرسبورغ الاوامر الى "حامية قزوين" بالتوجه الى آذربيجان عبر داغستان، يساندها اسطول قزوين، ليبدأ بذلك ما يعرف بالحملة الفارسية عام 1796م التي حققت نجاحات سريعة. ففي العاشر من ايار تلك السنة احتلت دربند، وفي الخامس عشر من حزيران دخلت القوات الروسية كوبا وباكو في وقت واحد من دون قتال، ثم واصلت تقدمها لتحتل قلعة شيروان الحصينة، ونوخا وقرة باغ التي تشرف على هضبة ارمينيا[21]. ولغاية آواخر تشرين الثاني من العام نفسه اصبحت القوات الروسية في وضع يسمح لها بالتقدم في عمق الاراضي الايرانية بعد ان اصبح الطريق الى تبريز، عاصمة الدولة القاجارية الثانية[22] مفتوحا امامها لكن التاريخ اعاد نفسه هنا مرة اخرى، فأن موت الامبراطورة كاثرين الثانية الطموحة تماما مثل بطرس الكبير، وانتقال العرش الى ابنها بول الاول في السابع عشر من

تشرين الثاني سنة 1796 قد حال دون ذلك، لان القيصر الجديد اتبع منهجا جديدا على الصعيد الخارجي، امتدت آثاره الى ايران، ومناطق القفقاس ايضا، ففي كانون الاول من العام نفسه اصدر الاوامر الى قواته العاملة في الجهة الايرانية بالانسحاب من منطقة القفقاس. شجع ذلك آغا محمد شاه[23] على تنظيم حملة ثانية ضد جورجيا للانتقام من قيصرها هيراكلي كونه طلب مساعدة روسيا لردع الخطر الايراني[24].

باشر آغا محمد شاه حملته الثانية على جورجيا من طهران في آذار سنة 1797م، وفي غضون مدة وجيزة وصل رجال الحملة نهر آراس، وبعد ان عبروه احتلوا قلعة شوش. توقف الشاه في شوش ينتظر انسحاب القوات الروسية من جورجيا، فقد بلغه قرار بطرسبورغ بهذا الخصوص قبل ان يغادر طهران[25]، وفي الواقع اثار قرار الانسحاب الروسي، وظهور الزعيم القاجاري في المنطقة مرة اخرى المخاوف، والهلع في نفوس الناس، ولاسيما بين الجورجيين الذين التجأ العديد منهم الى المناطق الجبلية الحصينة. ولكن حدث في شوش ما لم يكن في الحسبان، فقد دبر اثنان من حرس الشاه الخاص، كانا على اتصال بزعماء مستائين، امر اغتياله في خيمته يوم الثامن عشر من آيار سنة 1797م، لينتهي بذلك امر الحملة الثانية على جورجيا، فقد انهمك قادة الجيش الايرانيين بتقسيم الغنائم، وبالنزاعات الشخصية، وتعرضت معسكراته للسلب والنهب من السكان المحليين.

خلف فتح علي شاه عمه في العرش[26]، ومع انه، على عكس مؤسس الدولة القاجارية تماما، لم يكن جريئا، ولم يكن عسكريا مرموقا، الا انه كان متعطشا للتوسع، فوقع فريسة سهلة للاحداث، والعلاقات الدولية المتشابكة التي حملته على دفع بلاده الى اتون عدد من الحروب، كانت اثنتان منها مع روسيا القيصرية، وهما اخطر، واوسع حروب عهده، كما كانتا كذلك في قائمة الحروب الايرانية – الروسية.

ان اسباب هاتين الحربين، ودوافعهما كثيرة، ومتشابكة، تراوح مابين عوامل اقتصادية وسياسية واجتماعية مختلفة، لكن ذلك ليس من شأنه ان يقلل من تأثير غباء حكام ايران، وعدم واقعيتهم في تقدير الامور، كأحد عوامل نشوب تلك الحروب، وكأهم عامل لما آل اليه الوضع في ايران

بسبب سياستهم[27]، وينطبق هذا بصورة خاصة على فتح علي شاه الذي كان يفكر ويتعامل على جميع الصعد بعقلية قروسطية متخلفة. فلقد كان يتباهى بكونه صاحب اطول لحية في العالم[28]، وبكونه زوج الف اجمل امرأة فارسية وتركمانية وآذرية وجورجية وكردية، ووالد 262 ولدا وبنتا دفن منهم في الحياة (159)[29] ، كان مؤمنا بالسحر والطلسم والتنجيم، صفيفا امام الشدائد، غارقا حتى اذنيه في البخل والجشع، ومع انه لم يكن مطلعا على امور الدنيا، وعلى سياسة الدول، الا انه ما كان يعد نفسه اقل شأنا من معاصره نابليون بونابرت في شيء، وكان يتعامل في علاقاته الخارجية على هذا الاساس، ومن دون ان يستشير احدا في شؤونها، وفنونها التي تعقدت وتشابكت الى درجة لم يعد ادراك كهنها وخفاياها امرا سهلا، ان خير شاهد نستشهد بكلامه هنا هو المؤرخ الفارسي التقدمي سعيد نفيسي الذي يقول بخصوص سياسة ثاني ملك قاجاري مانصه:

"كان فتح علي شاه يتعامل دائما مع الدول الكبرى، مع انكلترا وروسيا وفرنسا والدولة العثمانية، في سياسته الخارجية بنفس الغرور، اذ لم يكن يتصور ابدا ان بوسع اي من هذه الدول ان تتحداه، او ان يكون هو نفسه قد ارتكب خطأ، او عملا غير مناسب"[30].

فلا غرابة، اذن، ان يخوض حاكم بهذه العقلية حربا مع دولة اوربية كبيرة بجيش كان يعاني من نقص خطير في التدريب والتجهيز، يتألف جانب منه من (الخبازين والخياطين والسراجين وباعة الفواكه) حسب تعبير المؤرخ الايراني نفسه، وجابه هذا الجيش المتهرئ الجيش الروسي المعروف بمدافعه النوعية الضخمة، بعدد قليل من المدافع، والمدفعيين "غير مطلعين كليا على الامور الفنية" على وفق شهادة الشاهد نفسه[31].

مع ذلك استمرت هذه الحرب على مدى اكثر من تسع سنوات طوال، من بدايات العام 1804م حتى اواخر العام 1813م. اما سر ذلك فكان يكمن، ببساطة، في المناورات الدولية التي رافقت الحرب بحكم تزامنها مع الحروب النابليونية الشهيرة التي كانت روسيا طرفا اساسيا فيها، فمتى ما وقفت بطرسبورغ مع لندن ضد نابليون هرعت باريس لمساعدة ايران ضد روسيا، ومتى ما انقلبت الآية وانضمت بطرسبورغ الى باريس سارعت لندن لتزويد فتح علي شاه بالمال والسلاح، لتنتهي المسرحية بسقود نابليون،

اذ تم توقيع معاهدة (كلستان) بين الروس والايرانيين، في الرابع والعشرين من تشرين الاول سنة 1813م بتوسط من الانكليز[32].

كانت نتائج حرب 1804-1813م كارثة سياسية واقتصادية واجتماعية حقيقية بالنسبة لايران. فمع ان "معاهدة كلستان" سميت في نصها الرسمي "معاهدة الصلح والصداقة بين روسيا وايران" الا انها كانت، في واقع الامر معاهدة استسلام من جانب ايران بكل معنى الكلمة, فلقد تألفت المعاهدة من مقدمة مفصلة، واحدى عشرة مادة نصت على تنازل ايران لروسيا عن ولايات وخانيات قرة باغ وكنجة وشيروان وشكي ودربند وباكو وكوبا، وعن الجزء الشمالي لخانية طالش. كما تخلت ايران ايضا عن ادعاءاتها بكل من جورجيا وداغستان . نصت المادة الخامسة من المعاهدة على "حق روسيا المطلق" في امتلاك اسطول حربي داخل بحر قزوين، فيما حرمت المادة نفسها ايران، او اي دولة اخرى، من حق مشابه. واعادت بقية بنود المعاهدة العلاقات التجارية بين روسيا وايران الى سابق عهدها، مع امتيازات اضافية حصل عليها المواطنون الروس[33].

لم يتعض القاجاريون من نتائج هذه الحرب المدمرة، بل ان فتح علي شاه حاول تبرير هزيمة بلاده العسكرية والسياسية باسلوب هزيل، غير منطقي، فقد تفتقت عبقريته عن مقولة غريبة، لانظير لها، اغلب الظن، في مجلدات السياسة قديمها وحديثها. فبعد خراب كل ما لديه نطق الشاه القاجاري قائلا:

"اوهل نحن بطط حتى نكون بحاجة الى مياه قزوين المالحة؟ "[34]. حقا ليس من السهل ان يكون الحاكم غبيا الى هذه الدرجة !!

بنفس هذه العقلية تعامل الحكام القاجاريون في فترة ما بعد كردستان، فعلى الرغم من الازمة الاقتصادية الخانقة التي اكتوت الجماهير الايرانية بنارها بسبب الحرب الاخيرة مع روسيا، الا انهم بدأوا يعدون العدة لحرب جديدة معها كان البريطانيون يشجعونهم عليها. وكان الروس، من جانبهم، يتحينون الفرص من اجل مد حدودهم مع ايران لتصل الى نهر اراس، كما كانوا يبذلون نا في وسعهم لخلق ظروف مناسبة تسمح لهم بتغلغل سياسي واقتصادي اوسع في مختلف المؤسسات الايرانية، ولتحقيق ذلك لجأوا، في حقبة ما بعد كلستان، الى اساليب جديدة، منها العمل على كسب عدد من

الموالين لهم بين الفرس انفسهم، وقد حالفهم النجاح في ذلك، اذ وصلوا الى داخل البلاط الايراني نفسه، وبدأوا يحصلون على ادق التفاصيل عن اهم الاحداث الايرانية[35]، مما ساعدهم في حربهم القادمة المتوقعة مع ايران.

مهد كل ذلك، وغير ذلك الدرب لوقوع حرب العام 1826-1828م بين ايران وروسيا، وهي، في الوقت نفسه، الحرب الاخيرة بينهما. تؤكد المواد الارشيفية السرية ان فتح علي شاه، وولي عهده عباس مرزا، الذي قاد بنفسه الحربين الاخيرتين مع الروس، قد خططا للحرب الجديد قبل وقوعها بمده طويلة. واستهدفت الخطة السوقية الايرانية الجديدة، التي اشترك الضباط البريطانيون في وضعها، الهجوم المباغت على القطعات الروسية الموجودة في ارمينيا الشرقية، وآذربيجان، وجورجيا، مع تجنب الخوض في معارك حاسمة قبل التأكد التام من النصر، واستغلال التفوق العددي للجيش الايراني الى اقصى حد، اذ بلغ تعداده (60)ألف رجل، اي خفض القوات الروسية في المنطقة. وفي حال فشل الجيش الايراني في تحقيق مهماته كان عليه، على وفق الخطة نفسها، ان يقوم بتدمير مناطق القفقاس قبل الانسحاب منها[36].

بدأت الحرب الجديدة في اواسط تموز سنة 1826م، وفي اسابيعها الاولى حقق الايرانيون انتصارات كبيرة بسبب عنصر المباغتة، وبفضل تفوقهم العددي. ففي منطقة قرة باغ وحدها فقد الروس (250) قتيلا، و(750) اسيرا، كما انهم اضطروا الى الانسحاب من العديد من المناطق الستراتيجية المهمة، بما في ذلك ميناء لنكران وكنجة وشيروان وغيرها[37]

لكن سرعان ما استعاد الروس تنظيم صفوفهم، وتمكنوا من تحصين مواقعهم بعد ان وصلتهم تعزيزات اضافية، لينقلب ميزان القوى في جميع ميادين القتال لصالحهم، وبسرعة غير متوقعة،بدأ الروس هجومهم المضاد من يوم الثالث من ايلول سنة 1826م، ووجهوا اول ضربة مؤلمة الى الايرانيين في معركة شمخور قرب كنجة داخل اراضي آذربيجان الشمالية في السابع عشر من ايلول، اضطر عباس مرزا على اثرها الى الانسحاب من شوش الى اسلاندوز بصورة غير منظمة، وبسرعة قياسية بلغت في بعض الحالات (150) ميلا في غضون (24) ساعة فقط على حد ما يؤكد بيرسي سايكس، ولشهادته اهميتها الخاصة[38].

تلاحقت هزائم الايرانيين بعد ذلك، حتى ان ولي العهد عباس مرزا تخلص من الوقوع في الاسر اكثر من مرة باعجوبة. وهنا بدأت تراجعات طهران، ومساوماتها مع الروس، ومع البريطانيين، ومع غيرهم، ولكن دون جدوى[39]، فيما تصرفوا على العكس من ذلك تماما مع السكان المحليين، بما في ذلك مع المسلمين ايضا، مما خلق تذمرا شديدا في صفوف الجميع، دفعهم الى الترحيب علنا بمقدم الروس، بل والى التعاون معهم في حالات غير قليلة، هنا ايضا نلجأ الى شهادة مؤرخ ايراني معتبر، الاستاذ الجامعي الدكتور علي بيناالذي سجل لنا بهذا الصدد ما نصه: (وعندما تقدمت القوات الايرانية في هذه الاصقاع، فأنها زاولت القتل والاعتداء والسلب والنهب بالنسبة للسكان، مما اثار حفيظتهم الى درجة انهم في بعض المناطق تأسفوا لانسحاب القوات الروسية، الامر الذي احرج موقف الجيش الايراني، وتحول الى ضربة قوية وجهت الى عباس مرزا)[40].

وكما يؤكد المؤرخ نفسه تعاون معظم رؤساء العشائر الآذربيجانية مع الروس، واقترح سكان مرند عليهم ان يقوموا معا باحتلال تبريز التي (لم يقل استياء سكانها عن استياء المرنديين)[41] ، فيما وردت في مصادر ايرانية اخرى اسماء العديد من الزعماء المسلمين الذين انضموا الى جانب الروس، منهم، مثلا، احسان خان الذي استولى الروس بمساعدته على قلعة عباس آباد[42].

وبحكم هذه العوامل مجتمعة اصبحت اندحارات الجيش الايراني في المرحلة الاخيرة من حرب 1826-1828م اكبر، وخسائره افدح، بحيث انه اضطر الى ترك اكثر المناطق حساسية. فأن مدينة يريفان، عاصمة ارمينيا، فتحت ابوابها امام الروس في الخامس عشر من تشرين الاول سنة 1827م. وسرعان ما حذا سكان مدينة تبريز المسلمين حذو سكان مدينة يريفان المسيحية، بل انهم تصرفوا بأسلوب غير متوقع تماما ان دل على شيء فأنه يدل على قصر نظر الحكام الايرانيين، واسلوبهم الشوفيني في التعامل مع القوميات غير الفارسية، بما في ذلك مع الآذربيجانيين الذين كانوا يؤلفون دوما عمادا اساسيا من اعمدة الدولة الايرانية في مختلف عهودها[43]. فقبل كل شيء رفض الآذريون التعاون مع حاكم المدينة لردع القوات الروسية القادمة، فاضطر الى الهرب من المدينة، ومن ثم فتحت المدينة ابوابها امام القوات الروسية التي استقبلها باسم سكان المدينة، وبرفقة اشرافها المجتهد الشاب، وامام الجمعة مرزا فتح علمي، ابن المجتهد المعروف الحاج مرزا يوسف التبريزي[44].

بسقوط مدينة تبريز اصبح استقلال ايران معرضا لخطر محدق، الامر الذي اجبر عباس مرزا اخيرا على ان يعيد النظر في حساباته بصورة جذرية، فأقنع والده بأن يوافق على الدخول في مفاوضات مباشرة مع القيادة الروسية. وعندما رفض فتح علي شاه شرط الروس، تقدمت القوات الروسية والحال صوب طهران في اتجاهين، فدخل الذعر في نفس الشاه الذي لم ير جبهة القتال مرة واحدة طوال اكثر من احدى عشرة سنة من عمر الحربين بين بلاده وروسيا، حتى انه، وتحت ضغط ولي عهده، اضطر في اواسط العام 1827م الى الذهاب الى السلطانية بقرب الجبهة لرفع معنويات افراد جيشه المنهارة، ولكن ما ان احس بدنو الخطر حتى عاد ادراجه على جناح السرعة الى عاصمة ملكه[45].

في مثل هذه الظروف اضطر فتح علي شاه الى التراجع، وبعد مفاوضات سريعة وقع عباس مرزا باسم ايران، والجنرال باسكوفيتش، قائد القوات الروسية، باسم بلاده على معاهدة الصلح يوم الثاني والعشرين من شباط سنة 1828م والتي دخلت التاريخ باسم قرية تركمانجاي حيث جرت مراسيم التوقيع على المعاهدة[46].

تتألف المعاهدة الجديدة بين ايران وروسيا من ست عشرة مادة حقق الروس من خلالها كل ما ارادوه، فقد تخلت ايران لروسيا بموجبها عن جميع مقاطعاتها الواقعة غرب قزوين، وشمال حدودها الحالية مع جمهوريتي آذربيجان وارمينيا، لان تركمانجاي نصت على وضع حدود جديدة بين الدولتين تمر بالاساس عبر نهر آراس. فضلا عن ذلك التزمت ايران بدفع غرامة حربية لروسيا مقدارها (20) مليون روبل ذهب، أي ما يعادل حوالي ثلاثة ملايين باون استرليني، مما كان يؤلف مبلغا ضخما للغاية حسب القوة الشرائية السائدة يومذاك. واقرت المادة الثانية من تركمانجاي ما ورد في معاهدة كلستان بصدد منح الروس وحدهم حق الاحتفاظ بسفنهم الحربية في مياه قزوين. وحصلت روسيا، ايضا، على امتيازات تجارية جديدة بموجب ملحق تجاري خاص الحق بالمعاهدة.

وهكذا فأن معاهدة تركمانجاي تحولت الى (طوق ثقيل لمدة حوالي قرن من الزمان في عنق الشعب الايراني) الذي غدا استقلاله السياسي (اسما بدونمسمى لغاية انتصار ثروة اكتوبر العظمى) على وفق تعبير المؤرخ الايراني ابراهيم تيموري[47].

هكذا انتهت سلسلة الحروب الايرانية- الروسية الدموية التي خسرت ايران بسببها مساحات شاسعة من اراضيها، واعدادا كبيرة من سكانها، واموالا طائلة. لاشك في ان اطماع روسيا القيصرية الواسعة كانت تؤلف عاملا جوهريا لما وقع من حروب، ومآس بين ايران وروسيا، ولكن لاشك، ايضا في ان انتهاج سياسة حصيفة كان من شأنه تجنيب الكثير من الويلات، والخسائر حتى في الارض على ما نعتقد، وفي كل الاحوال ، لا يعدو ذلك كونه حقيقة عامة، لا خاصة.

الهوامش

1- B.M.Dantsig, Blijnii Vostok v Russkay Nauke iLterature, Moskva , 1973, pp.20-21.

2- L.Lockhart , The Fail of the safavi pynasty and the Afghan Occupation of Persia, Gambridge 1958, pp. 55-58 .

3- القوزاق: في الاصل اسم لسكان مناطق دون وكوبان وغيرهما في روسيا، وتشكلت بالاسم نفسه قوات خاصة منذ القرن الخامس عشر كان قوامها بالاساس، من اقنان القوزاق الهاربين، ومن فقراء المدن. بلغ تعداد قطعات القوزاق في العام 1916 حوالي (286) الف مسلح كانوا يؤلفون احدى الادوات المهمة لحماية النظام القيصري . اعجب ناصر الدين شاه القاجاري (1848- 1896) بنظام القوزاق، فأسس بمساعدة الضباط الروس فرقة تحمل الاسم نفسه، تحولت الى قوة مؤثرة في سير الاحداث الايرانية الى حين سقوط القاجاريين في العام 1925.

4- G.N.Curzon, Persia and the Persian Quertion, vol . I, Second Impression, London 1966, p.374.

5- كمال مظهر احمد، دراسات في تاريخ ايران الحديث والمعاصر، بغداد 1985م، ص14-15 .

6- L.Lockhart , Op.Cit, pp. 103-104, 177, N.G.Kuganova, Ochirki po Istorii Russko-Iranskikh torgorikh otnoshenii, Saransk 1977, p.263.

7- كانت منطقة باكو، في اذربيجان الشمالية، تعد من اغنى المناطق النفطية في العالم يومذاك، ولقد تم استغلال حقولها في وقت مبكر نسبيا، واعتمدت روسيا القيصرية على انتاج تلك الحقول اساسا، وظل الامر على هذا النحو على مدى عقود في العهد السوفيتي الى ان تم اكتشاف حقول جديدة غنية جدا في مناطق اخرى جعلت من الاتحاد السوفيتي اول دولة في العالم من حيث احتياطي النفط وانتاجه الى حين سقوطه.

8- L.Lockhart , Op.Cit, p 244

9- للتفصيل عن الغزو الافغاني لايران يمكن الرجوع الى :
M.S.Ivanov, Ocherk Istorii Irana, Moskva, 1952 , pp 82-91

10- Ibid, p.86 ; G.N.Curzon, Op.Cit, p. 374.

11- مقتبس في L.Lockhart , Op.Cit , 246

12- كمال مظهر احمد، المصدر السابق، ص 19.

13- للتفصيل عن نادر شاه وعهده يمكن الرجوع الى : د. محمد وصفي ابو مغلي، ايران دراسة عامة، منشورات مركز دراسات الخليج العربي بجامعة البصرة، البصرة 1985م، ص262-270 .

14- G.N.Curzon, Op.Cit, pp. 734-735 .

15- M.S.Ivanov, Op.Cit, pp. 92-105.

16- سعيد نفيسي، تاريخ اجتماعي سياسي ايران در دوره معاصر، تهران 1335م، ص46-49، 52-54 .

17- همان منبع ، ص50، 64 ؛ دكتر علي بينا ، تاريخ سياسيودبلوماسي ايران، مجلد اول ، جاب سوم، تهران 1342 ، ص 44؛

18- وزارة الخارجية . السياسة الخارجية لروسيا في القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، وثائق وزارة الخارجية الروسية ، التسلسل الاول (1801-1815) ، المجلد الاول (اذار 1801- نيسان 1804)، ص73، الوثيقة رقم 17 (باللغة الروسية) .

19- K.A.Kuznitsova, Politicheskoe…. Polojenie Irana v kontse xvlll- pervoy polorine xlxv., -Ochirk noxoy Istopii Irana, Moskva 1978, p9

20- سعيد نفيسي، تاريخ اجتماعي سياسي ايران در دوره معاصر، ص.64

21- دكتر علي بينا، تاريخ سياسي وديبلوماسي ايران، جلد اول، ص.49

22- حول القاجاريون مدينة تبريز الاذربيجانية المهمة الى مقر لولي العهد، يتدرب فيها على شؤون الادارة الى حين اعتلائه العرش، فينتقل الى طهران، الغي هذا التقليد في العهد البهلوي.
23- بعد نجاح حملته الاولى على جورجيا فقد بدأ مؤسس الدولة القاجارية آغا محمد خان يحمل لقب الشاه في احتفال مهيب اقامه بالمناسبة في طريق عودته الى عاصمة ملكه.
24- كمال مظهر احمد، المصدر السابق، ص26-27.
25- N.A.Kuzntisora, Op.Cit, p. 14.
26- كان اغا محمد خصيا، لم يخلف عقبا، ففي صغره وقع اسيرا بيد عادل شاه الافشاري، ابن اخي نادر شاه وخليفته على عرش ايران، فأمر باخصائه.
27- يستثنى من ذلك، الى حد ما، عباس مرزا ثالث ابناء فتح علي شاه، وولي عهده.
28- Baron E.Korf , Vospominania o Persia 1834-1835, ST.Pet, 1836, p.138.
29- في العام 1882 بلغ عدد نسل فتح علي شاه حوالي عشرة الاف شخص، كان جميعهم يحملون لقب الامير، او الاميرة، حتى غدت عبارة" حيثما تذهب تلتقي القمل والجمال والامراء" مقولة شائعة في طول ايران العهد القاجاري وعرضها.
30- سعيد نفيسي، تاريخ اجتماعي وسياسي ايران در دوره معاصر، ص.80
31- همان، منبع، ص211، 261-264 .
32- للتفصيل عن المنازعات الدولية التي رافقت الحرب الايرانية- الروسية في تلك الحقبة يمكن الرجوع الى: الدكتور كمال مظهر احمد، المصدر السابق، ص29-56.
33- كمال مظهر احمد، المصدر السابق، ص56-57.
34- Quoted in : Bahman Niramand , Iran the New Imperialism in action, New York and London 1969, p.20.

35- وثائق وزارة الخارجية الروسية، المجلد الثامن، ص541-547.، الوثيقة رقم 248 ؛ المجلد العاشر، ص27، 69، 221-229. وغيرها؛ المجلد الثاني عشر، ص648، الملاحظة رقم 189(باللغة الروسية).
36- B.P.Balayan, Mejdunarodnaya Otnoshenia Irana 1813-1828,gg., Erevan, 1967, pp.128-129

37- للتفصيل عن العمليات العسكرية في حرب 1826-1828م يمكن الرجوع الى جهانكير مرزا، تاريخ نو (شامل حوادث دورهء قاجارية) تهران 1327، ص25-115؛ دكتور علي بينا، تاريخ سياسي وديبلوماسي ايران، جلد اول، ص216-229 ؛ P.sykes, Op.Cit, pp317-320,

38- P.sykes, Op.Cit, p.318

39- للتفصيل عن تلك المساومات يمكن الرجوع الى: الدكتور كمال مظهر احمد، المصدر السابق، ص67-69.

40- دكتر علي بينا، تاريخ سياسي وديبلوماسي ايران، جلد اول، ص.222

41- همان منبع، ص.240،238

42- سعيد نفيسي، تاريخ اجتماعي وسياسي ايران در دورهء معاصر، ص467؛ جهانكير مرزا، تاريخ نو....، ص81-82.

43- بنيت الدولة الصفوية الشهيرة اصلا، على اكتاف الآذربيجانيين، وكانت تبريز اول عاصمة لها، كما كانت اللغة الذربيجانية لغة البلاط والمؤسسة العسكرية الصفوية الى حين تولي الشاه عباس الكبير العرش في العام 1587م، وهناك من المؤرخين المتخصصين من يعتبر الدولة الصفوية دولة آذارية لا فارسية في بداية تأسيسها.

44- بروفيسور و. مينورسكي، تبريز، ترجمة وتحشية: عبد العلي كارتل، ص68-69؛ Histery of Persia under Qajar Rule, New York and London, 1972, pp.181-182.

45- دكتر علي بينا، تاريخ سياسي وديبلوماسي ايران، جلد اول، ص.238

46- للتفصيل عن معاهدة (تركمانجاي) وظروف عقدها، وبنودها يمكن الرجوع الى: الدكتور كمال مظهر، المصدر السابق، ص70-73.

47- ابراهيم تيموري، عصر بي خبري يا تاريخ امتيازات در ايران، تهران 1332، ص239.